الباب الأول

الجرس

هذا الحرف لم يكن يستعمله الأوائل استعمالا اصطلاحيا كما نفعل الآن . وإنما كانوا يستعملون لفظتى البلاغة والفصاحة ، ويختلفون بَعْدُ فى مدلوليهما . والذى كان راجحا عندهم أن الفصاحة تتعلق باللفظ ، والبلاغة بالمعنى . قال أبو هلال العسكرى [1] : « ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ ، والبلاغة تتناول المعنى أن البَبَّغاء يسمى فصيحا ، ولا يسمى بليغا ، إذْ هو مقيمُ الحروفِ ، وليس له قصد إلى المعنى الذى يؤدّيه » . اهـ . وقال فى موضع آخر [2] : « قالوا : وإذا كان الكلام يجمع نُعوت الجَودة ، ولم يكن فيه فخامة وفَضْلُ جزالة ، سُمّىَ بليغا ، ولم يُسَمَّ فصيحا » . اهـ . فهذا كله يدلّ على أن الفصاحة بالمعنى الاصطلاحى القديم ، كان يراد بها رَنِينُ الألفاظ . وهذا قريب من مُرادنا بكلمة الجَرْس . وكثيرا ما كان الأوائل يستعملون لفظة الجزالة ، يَعنون بها رَنِين اللفظ . ولكنّ هذه اللفظة كانت تستعمل فى أغراض عديدة ، وتُسْلَكُ بها مَسالكُ متشعّبة . والبحث فى ذلك

---

(١) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى مصر ١٩٥٢ : ٨ .

(٢) نفسه : ٨ .

يطول . والراجح عندى أنها كانت تصف الأسلوب عامّة ، ولا سيما إذا كان يُشتَمُّ منه النَّفَسُ الجاهليّ . وقد تورّط أبو هلال فاشترط الجزالة لجودة الكلام ، وعرّف الجَزْل من القول ، بأنه الذى « تعرفه العامّة إذا سمعته ، ولا تستعمله فى محاوراتها » [١] . وما لَبِث أن نقض مقالته هذه ، حين تعرّض لأبيات من شعر تأبَّطَ شَرًّا ، منها فى صفة الظليم :

أزَفُّ زَلُوجٌ هِزرِفٌّ زَفازِفٌ ... هِزَفٌّ يَبُذُّ النَّاجيات الصَّوافِنا [٢]

فوصف هذا بأنه من « الجَزْل البغيض الجِلْف . . . . الذى ينبغى أن يُتَجَنَّبَ مثلُه » [٣] . وكأنى به قد احتاج إلى المشايخ والمعاجم فى تفهم هذا البيت ، ولم يستطع أن يُنكر جزالته ، وأيقن أنه مما لاتفهمه العامة حين تسمعه ، ولا تقدر على أن تأتى بمثله ، فلم يملك إلا ذمَّه .

هذا ، ومما يلحق بكلمتى « الفصاحة » و « الجزالة » مما كان يراد به نعت الألفاظ ورنينها ، « حسنُ الرَّصْف » و « الفخامةُ » و « شدةُ الأَسْر » و « صفاء الديباجة » و « السلاسة » . و « الفصاحة » ، أدخلها جميعا فى جوهر الاصطلاح . وكلمة « الجَرْس » التى نستعملها نحن المعاصرين ، أدلُّ منها على القصد ، فصوتها نفسه يُشعر بمعناها . وهى بعدُ لفظ واسع المدلول ، ينضوى تحته كلّ ما يتعلق بدَنْدَنة الألفاظ فى البيان الشعرىّ . فالوزن والقافية على ذلك طَرَفٌ منه . وتبقى بعد الوزن والقافية فَضْلة ، هى مرادنا من هذا الباب . وهذه الفضلة يدخل فيها الجناس والطباق ، وسائر المحسنات اللفظية ، مع تركيب الكلام ، وترتيب الكلمات وتخيرها ، وكلّ مامن شأنه أن يعين على تجويد البِنْيةِ والرنين فى أبيات الشعر . وتقابل كلمة « جَرْس » من الاصطلاحات الإنجليزية ، كلمة : « Rythm » .

---

(١) نفسه : ٦٨ .

(٢) قوله « أزف » ... إلى قوله « هزف » : كله بمعنى السرعة . واستعمل الجمع « زفازف » مكان المفرد زفزاف ، أو لعله أراد : ذو زفازف » والزفزفة : الخفة ، وهزف : كأنها محرفة من هجف : أى هذا الظليم سريع ، يبذ الخيل الناجيات الصوافن .

(٣) نفسه : ٦٨ .

وعلى مثال Rythm ونظائرها فى اللغات الإفرنجية ، حذا النقاد المعاصرون منا ، فى استعمال كلمة « جَرْس » .

ومن العجيب حقا ، أن النقاد القدماء ضلّ عنهم أن يستعملوا كلمة « الجَرْس » استعمالا اصطلاحيًّا ، وهى أدلّ — كما قدّمنا — من كلمة « الفصاحة » ، مع أنهم كانوا حَرِيصين على البديع ، وتسمية أنواعه ، والاصطلاح لها . وأحسب أن للدّين يدا فى هذا ؛ فقد كانت الموسيقا والغناء ، لولا تعشُّق بعض العِلْية من الخلفاء والأمراء ، وبعض أهل الذوق من المتصوّفة لهما ، بالمرتبة السُّفلَى ، والحضيض الأوهد ، فى نظر الناس . وقد كان الفقهاء يختلفون فى تحريم الغناء وتحليله ، وهذا وحدَه قد كان كافيا ليذُبّ المتحرِّجين عنه ، أخذًا بالحديث : « الحَلالُ بَيِّنٌ ، والحَرَامُ بَيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهات . . الخ » . ولا نعلم شريفا شغل نفسه بالغناء ، أيام دولته الكبرى بالحجاز على عهد بنى أُميَّة ، اللهمّ إلا ما كان من أمر الوليد بن يزيد ، ورأْىُ المسلمين فيه معروف ، وأخبار سماع عبد الله بن جعفر كانت تُروَى على أنها نادرة من النوادر ، ومع هذا فلم يَفُتِ الرواةَ أن يخبرونا بما كان من لوم معاوية له فى ذلك[1] . ويَذكر لنا صاحب الأغانى أن إسحاق بن إبراهيم كان من العلماء الفضلاء ، ولكن الغناء قد غَضَّ من منزلته ، حتى إنه لمّا طمع أن يُؤذَن له فى لُبس السواد مع القضاة ، زجره المأمون على ذلك[2] . وكان إبراهيم بن المهدىّ يكره أن يُعَدّ فى المغنين ، وقد هجاه دِعبل أمرَّ الهجاء ، بصنعته هذه ، حينما تولى الخلافة ببغداد ، وذلك حيث يقول :

إن كانَ إبراهيمُ مُضْطلعا بِها ... فلْتَصْلُحَنْ[3] من بعدِهِ لِمُخارِقِ

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ٤ : ٣٥ .

(٢) نفسه : ٥ : ٥٦ .

(٣) يريد الخلافة ، يقول إن صلح لها إبراهيم ، فإن مخارقا المغنى وأصحابه صالحون لها .

وَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِ ذاكَ لِزَلْزَلٍ وَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لِلْمَارِقِ
أَنَّى يكونُ وليسَ ذاكَ بكائنٍ يَرِثُ الخلافةَ فاسقٌ عن فاسقِ

ويذكر أبو الفرج أن الواثق كان يتعاطى الغناء . ويَحذِق جانبا منه ، إلا أنه كان يكتم ذلك أشدّ الكِتمان[1] . فهذا كله يدلك على كراهة الأوائل للغناء والموسيقا ، وتحرّجهم منهما .

ولما كان المقصود من علم البلاغة هو إظهار الإعجاز ودلائله ، فلا يخفى أنّ نعت أىّ شىء من كتاب الله أو أحاديث رسول الله ، بأنه ذو جَرْس وذو دَنْدنة وذو موسيقا ، أو مشتمل على صفة من صفات الغناء ، يَدخل فى باب الزندقة . ولهذا فضّل العلماء أن يستعملوا كلمة « الفصاحة » المشتقة من البيان والظهور ، على استعمال أىّ كلمة تُشتمّ منها رائحة الترنّم والنَّغم ، لوصف الجانب اللفظى من أسلوب القرآن .

ونحن فى هذا العصر لانتظر إلى الغناء أو الرسْم أو أىّ فنّ من الفنون التى كان يتحرّج أوائلنا منها ، نظرة شَزْر . ونُقّاد الإفرنج الذين نقترى سبيلَهم فى منهج البحث ، ما زالوا — مذ كانوا — يَعُدّون الغناء والموسيقا من الفنون الرفيعة . وأثر الدين المسيحى فى هذا لا يخفى ، لأن العبادات والطقوس الكَنَسية تعتمد كثيرا على الترنّم وآلات الطرب ؛ فلا غَرْو أن تنبه النُّقاد الغربيون إلى دقائق فى ناحية الرَّنين اللفظى ، لم يتنبه لها العسكرىّ وأضرابه .

فصاحة الكلمة والكلام

عالج علماء البلاغة ناحية الجَرْس باسم الفصاحة والسلاسة والطلاوة ، فى غير ذلك من الألفاظ ، كما قدّمنا ، فى بابين مهمين : باب المعانى ، وباب البديع . والذى قيل فى باب المعانى أهمّ بكثير فى نظرنا ، مما قيل فى باب البديع ، لأن البديع

(١) راجع الأغانى — أخبار إسحاق الموصلى ٥ : ٤٩ الخ .

كله يدور على إحصاء المحاسن اللفظية وتسميتها . وأما المعانى فيبحث فى الأصول التى تلزم للكلام الجيد ، ويحاول إبراز ما هياتها ، وتخريجَ وجوهها المختلفة ، على منهج منطقىّ فلسفىّ .

والمبحث الذى يهمنا من باب المعانى ، هو تلك المقدّمات التى يبدأ بها البلاغيّون عن فصاحة الكلمة والكلام . وأنقلها هنا مختصرة عن الصفحات الأُوَل من قسم البلاغة ، من كتاب المرحوم حفنى ناصف « قواعد اللغة العربية » ، وهو كتاب معروف مقرّر فى مدارس مصر والسودان . قالوا :

١ — تكون الكلمة فصيحة إذا سلمت من الغرابة ، ومن تنافر الحروف . ومثّلوا للغرابة بنحو جَحْمَرِش ، وللتنافر بنحو النُّقاخ والهعخع . ونظم هذه القاعدة صفىّ الدين الحلى فى أبيات مشهورة ، منها قوله :

إنّمَا الحَيْزَبُونُ والدَّرْدَبِيسُ والطَّخَا والنُّقاخُ والعَلْطَبِيسُ
لُغَةٌ تَنْفُرُ المَسامِعُ مِنْها حينَ تُرْوَى وتَشْمَئِزُّ النُّفوسُ[1]

٢ — ويكون الكلام فصيحا إذا خلا من تنافر الكلمات ، والتعقيد اللفظىّ ، والتعقيد المعنوى ، وضعف التأليف . ويُفهم من هذا وجوب أن يتركب الكلام من كلمات فصيحة ؛ فمثال التنافر قول الآخَر :

وقَبرُ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرْ وليسَ قُرْبَ قبرِ حَرْبٍ قبرْ

وينسب هذا البيت إلى الجنّ ، ويزعمون أنها قالته بعد قتلها حرب بن أمية . وكان قد نافر هاشم بن عبد مناف ، فغلبه هاشم ، وخرج أمية من مكة ، فأصابته الجنّ فى بعض الطريق .

ومثال التعقيد : قول أبى الطيب من كلمته « لَكِ يا مَنازِلُ » :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخونَ بها بِهِمْ شِيَمٌ على الحَسَبِ الأغرّ دلائلُ

ومثال التعقيد المعنوىّ : قول الآخر ، أظنه العبّاسَ بن الأحنف :

---

(١) ديوانه ، طبعة بيروت ٤١٨ — ٤١٩ .

سأطلبُ بُعْدَ الدارِ عنكُمْ لتقرُبُوا وتسكبُ عَيناىَ الدموعَ لِتَجْمُدَا

فمراده من الجمود غامض .

وقول الطائىّ :

رَقيقُ حواشِي الحِلْم لَوْ أنَّ حِلْمَهُ بكَفَّيْهِ ما مارَيْتَ فى أنَّهُ بُرْدُ

وهذا مما عابه الآمدىّ ، وزعم أنه خارجٌ عن مذهب العرب فى نعت الحلم [1] .

ومثال ضعف التأليف قول الآخر :

جزَى بَنوهُ أبا الغَيْلانِ عن كِبَرٍ وحُسْنِ فِعْلٍ كما يُجْزَى سِنِمَّارُ

وبين القاعدتين الأولى والثانية خصوصٌ وعمومٌ . فلا بُدَّ للكلام الفصيح من أن تكون كلماته فصيحة . ولا يترتب على فصاحة الكلمات كون الكلام فصيحا . مثال ذلك بيت مسلم المشهور :

سُلَّتْ وسُلَّتْ ثم سُلَّ سَلِيلُها فغدا سَلِيلُ سَلِيلِها مَسْلُولا

فكلماتُه إن أفردْتها فصيحة ، وهى معا أبعدُ شىء عن الفصاحة ، لمكان التنافر بينها ، فيما زعموا .

ومثل هذا قول الطائىّ :

كَريمٌ متى أمْدَحْهُ أمْدَحْهُ والوَرَى معى وإذا ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِى

فقد كرِهوا توالىَ الحَلْقِيَّيْن فى « أمْدَحْهُ أمْدَحْهُ » ، وعندى أن هذا ليس بقبيح . وتوالِى الحَلْقِيَّين كثيرٌ فى الكلام الفصيح ، منه قوله تعالى : « وأوْفوا بعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدتم » . والذى استشهد بكلام أبى تمام هذا ، لم يتدبر قُرآنَه ، ولا يحضرنى اسمه .

هذا ، والذى ذكره العُلَماء فى باب فصاحة الكلام ، فيه أشياء لا تَمَسّ « الجَرْسَ » من قريب ، وإنما تتصل بباب الأسلوب والبيان ، كالتعقيد المعنوىّ

(١) راجع الموازنة ، تحقيق محمد محيى الدين ، مصر ١٩٤٤ : ٢٦ .

وضعف التأليف . [وذكرهما لهذين الصنفين . يقوّى ما قدمناه لك ، من أن كلمة الجَرْس أدلّ على صوت اللفظ ، وأدقّ فى التعبير من كلمة الفصاحة] .

ويستنتج من قاعدة فصاحة الكلمة ، أن الكلمات تكون حسنة وقبيحة فى ذواتها. وهذا قد كان رأى أكثر النقاد ، ولايزال يقول به جماعة من المعاصرين . وكان بعض القدماء ينكره ، ويزعم أن الكلمات كلها حسنة فى ذواتها ، حتى يلحقها النَّظْم ، فتعلو أو تَسْفُل . ونقل ابن الأثير رأى هؤلاء ، من دون أن يسميهم ، ليسخر منه فى مَثَله السائر[1] . وابن الأثير كان من القائلين بنظرية الحُسن والقُبح فى ذوات الكلمات ، شأنه فى ذلك شأن أبى هلال العسكرىّ ، والجاحظِ فى البيان والتبيين ؛ وعلى آراء ابن الأثير فى الغرابة والتنافر اعتمد المتأخرون . وأنقل للقارئ هنا طَرَفا منها . قال ، بعد أن مهد لقضيته بأن الألفاظ هى من حَيِّز الأصوات : « فالذى يستلذُّه السمع منها ، ويميل إليه ، هو الحسن . والذى يكرهه وينفر عنه ، هو القبيح . ألا ترى السمع يستلذّ صوت البلبل من الطَّير ، وصوت الشُّحرور ، ويميل إليهما ، ويكره صوت الغراب ، وينفر عنه ، وكذلك يكره نَهيق الحَمير ، ولا يجد ذلك فى صَهيل الفرس ؟ والألفاظ جارية هـذا المَجرَى ؛ فإنه لاخلاف فى أن لفظة المُزْنة والدِّيمة حسنة ، يستلذّها السمع ، وأن لفظة البُعاق قبيحة ، يكرهها السَّمع . وهذه اللَّفظات من صفة المطر ، وهى تدلّ على معنى واحد . ومع هذا فإنك ترى لفظتى المُزْنة والدّيمة وما جرى مجراهما ، مألوفة فى الاستعمال ؛ وترى لفظ البُعاق وما جرى مجراه متروكا ، لايستعمل . وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة ، أو من كان ذوقه غير سليم ، لاجَرَم أنه ذمّ وقدْح فيه ، وإن كان عربيا محضا من الجاهلية الأقدمين . فإن حقيقة الشىء إذا عُلِمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعَرّج على ما خرج عنها . وإذَنْ ثبت أن الفصيح من الألفاظ : هو

(١) المثل السائر لابن الأثير ، تحقيق محمد الصباغ ١٢٨٢ هـ ، ص ٤١ .

الظاهر البَيِّن . وإنما كان ظاهرا بيِّنا لأنه مألوفٌ فى الاستعمال . وإنما كان مألوفا فى الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مُدْرَك بالسمع . والذى يُدْرَك بالسَّمع ، إنما هو اللفظ ، لأنه صوت يأتلف من مخارج الحروف . فما استلذَّه السمع فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح »[1] .

ويستنتج من كلام ابن الأثير هذا ، أن الكلمة تكون قبيحة إذا كانت غريبة غير مألوفة ، وكونها غريبة غير مألوفة ناشئٌ من قُبح مخارجها . وهذا منطق فاسد ؛ والأساس الذى بنى عليه ، وهو أن الألفاظ من حيز الأصوات ، أساسٌ واه ، لأننا نستحسن أصوات البلابل ، ونستقبح أصوات الغربان ، من حيث إنها جَرْسٌ محض . أما الألفاظ فلا نقدر أن نتصوّرها بدون معانيها . خذ مثلا كلمة « نَهيق » ، أليست هذه الكلمة حكاية لصوت الحمار المجمع على قبحه ؟ أهذا يجعلها قبيحة فى ذاتها ؟ لو جاز أن يقال هذا ، لحُرِّم على الشعراء أن يصفوا الأصوات القبيحة جملة ، لا ، بل لبطل التعبير عن مظاهر القُبح الموجودة فى الدنيا مرّة واحدة .

ومما يؤخذ على ابن الأثير أيضا ، فرضه أن المألوف فى الاستعمال من الكلمات كان وسيظلّ مألوفا ، لطبيعة حسنة راسخة فى سنخه . وقد أباح لنفسه — دفاعا عن هذه النظرية — أن يعيب على الجاهلىّ المحض استعمال كلمة « بُعاق » . والذى لاشكّ فيه ، أن الكلمة ربما تكون مألوفة اليوم ، غيرَ مألوفة غدا .

وقد ذهب عبد القاهر الجُرْجانىّ إلى القول الذى كرهه ابن الأثير ، من أن الألفاظ كلها متساوية ، حتى يفرق بينها النظم . قال : « . . . ينبغى أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها فى التأليف ، وقبل أن تصير إلى الصورة التى يكون بها الكلم إخبارا أو أمرا أو نهيا أو استخبارا أو تعجبا ، وتؤدّىَ فى الجملة معنى من المعانى التى لاسبيل إلى إفادتها إلا بضمّ كلمة إلى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة — هل يتصوّر أن يكون بين

(١) المصدر نفسه : ٤١ .

اللفظتين تفاضل فى الدلالة : تكون هذه أدلّ على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ما هى موسومة به ، حتى يقال : إن « رجلا » أدلّ على معناه من « فرس» على ماسمى به ؟ وحتى يتصوّر فى الاسمين الموضوعين لشىء واحد أن يكون هذا أحسن نبأ عنه ، وأبين كشفا عن صورته من الآخر ؟ فيكون « الليث » مثلا أدلّ على السبع المعلوم من الأسد ، وحتى أنا لو أردنا الموازنة بين لغتين ، كالعربية والفارسية ، ساغ لنا أن نجعل لفظة « رجل » أدلّ على الآدمىّ الذكر من نظيره فى الفارسيّة ؟ وهل يقع فى وهم — وإن جهد — أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ننظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخفّ ، وامتزاجها أحسن ، ومما يكُدّ اللسان أبعدَ ؟ وهل تجد أحدًا يقول : « هذه اللفظة فصيحة » إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا : « لفظة متمكنة ، ومقبولة » ، وفى خلافه : «قلقة ، ونابية ، ومستكرهة» إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبوّ عن سوء التّلاؤم ، وأن الأولى لم تَلِقْ بالثانية فى معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية فى مؤدّاها؟وهل تشكّ إذا فكرتَ فى قوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلعى ماءَك ، ويا سَماءُ أقْلِعى ، وَغِيضَ الماءُ ، وَقُضِيَ الأمْرُ ، وَاسْتَوَتْ على الجودِىّ ، وَقِيلَ بُعْدًا للقَوْمِ الظّالِمِينَ »، فتجلّى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وهكذا ، إلى أن تستقرّ بها إلى آخرها ، وأنّ الفضل تناتَجَ ما بينها ، وحصل من مجموعها ؟ إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لوأخذت من بين أخواتها

وأفردت ، لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهى فى مكانها من الآية ؟ قل « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها . وكذلك فاعتبر سائر مايليها . وكيف بالشكّ فى ذلك ، ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نُودِيَتْ ثم أُمِرَتْ ، ثم فى أن كلّ النداء بـ « يا » دون « أى » نحو : « يا أيتها الأرض » ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعى الماء . ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداءَ السماء وأمرها كذلك بما يخصها . ثم أنْ قيل « وغِيضَ الماء » ، فجاء بالفعل على صيغة « فُعِلَ » الدالة أنه لم يَغِض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقُضِيَ الأمْرُ » . ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو « استوت على الجُودِيّ » ، ثم إضمار السَّفينة قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة « قيل » فى الخاتمة « بقيل » فى الفاتحة . أفترَى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك رَوْعة ، وتحضُرك عند تصوّرها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كلّ ذلك ، لما بين الألفاظ والمعانى من الاتساق العجيب ؟

قد اتضح إذن ، اتضاحا لايدع للشكّ مجالا ، أن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مُجَرَّدة ، ولا من حيث هى كَلِمٌ مُفرَدة . وأن الألفاظ تَثبُت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك ، أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتُوحشك فى موضع آخر . اهـ »[1] .

ويؤخذ على عبد القاهر ، أن فى كلامه نوعا من التناقض ، من حيث إنه يسلم أن الكلمات منها الغريب الوحشىّ ، ومنها الذى يكُدُّ اللسان ، ثم ينفى بعد هذا كله أن تكون الكلمات متفاضلة غير متساوية قبل أن يشملها النظم . وربما يُعْتذَرُ لعبد القاهر عن هذا بأنه كان يرى الألفاظ فى جملتها غيرَ متفاضلة ، وأن فضل

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، طبعة المنار الرابعة ١٣٦٧ هـ ص ٣٥ / ٣٨ .

المستعمل على غير المستعمل ، والخفيف على الثقيل طفيف ، بحيث يمكن تجاهله ، وأن النظم إذا أجاده صاحبه ، قد يسبغ على كلمة وحشية رونقا لايتهيأ ولايتأتى إذا وضعنا مكانها كلمة أخرى مألوفة ؛ وقد يتيح لكلمة ثقيلة ، تكُدُّ اللسان من العذوبة ما لايتوفر لو استبدلناها بأخرى مما يحسب خفيفا سهلا .

ولابن الأثير أن يعترض على هذا الاعتذار باعتراضات كثيرة : منها أن فى تسليم عبد القاهر نفسه بأن فى الكلمات مايكون ثقيلا كادًّا للّسان من طبيعة مَخْرجه ، ما يدلّ على صدق النظرية القائلة بحُسن ذوات الكلمات وقُبحها . ومثل هذا الاعتراض لابد أن يجرّ إلى اعتراض آخر ، وهكذا حتى نخوض ونلجّج فى بحر طويل عريض من السَفْسَطة .

هذا ، ومع أن نظرية عبد القاهر ليست دقيقة سليمة كلّ السلامة ، كما بَيَّنْتُ ، فهى عندى أعمق غوْرًا من نظرية ابن الأثير . لأن ابن الأثير لم يزد على أن قسم كلّ الموسوعة اللغوية إلى قسمين : حسن وقبيح . وبنى كلّ ذلك على أساسٍ واهٍ سطحىّ جدا . أما الجُرجانىّ فقد تنبه إلى ما للتركيب والنظم من تأثير عظيم على رنين الكلمات ، وموقعها من الأسماع والقلوب . وأكبر مايؤاخذ به ، هو أنه نسب كلّ حُسن وقُبح فى الألفاظ إلى التركيب وحده . وحتى على تقدير أن الموسوعة اللغوية خالية مما يكُدُّ اللّسان ، وخالية من المألوف وغير المألوف ، فقول الجرجانىّ لايمكن التسليم به فى جملته ، لأنه مبنىّ على تناسى العنصر البشرىّ ، وما تفعله الكلمات فيه ، منظومة ومفردة ، من تأثير . ولا شكّ أن الإنسان بطبيعته لامفرّ له من أن ينفعل انفعالا ما ، نحو ما يقع فى حيز إدراكه ، والألفاظ المفردة ، كالمنظومة ، كلها واقعة فى حيز الإدراك . وباختلاف الناس تختلف الانفعالات ، ومن هنا يحدث التفاضل فى الألفاظ المفردة ، قبل أن يلحقها النظم . ولولا ذلك ما كان يجد ابن الأثير من يهتم بما ذكره ، فضلا عن أن يؤيده .

أصول الألفاظ :

الناظر فى جملة الألفاظ المودعة فى القواميس والدائرة على الألسن ، يجدها من فصيلتين : فصيلة وصفية ، وأخرى رمزية . والنوع الوصفىّ من الألفاظ هو أيضا من ضربين : ضرب محتفظ بوصفيته ، وآخر كالفاقد لها ، أو فاقد لها بالكلية ، وهذا يمكن إدخاله ضمن الفصيلة الرمزية . أما النّوع المحتفظ بوصفيته ، فهو نحو : زحير ، وزفرة ، وصَهْصَلِق ، وأملس وزَمْهَرير . ونعنى بالوصفية هنا : أن الواضع راعَى فى مدلولات هذه الكلمات ، صفاتها الواضحة ، المُدْركة بالحواسّ ، وحاول تقليدها بحروف فيها مَشَابِهُ من هذه الصفات : واضع زَحِير ، وَزفِير ، وصَهْصَلِق ، ونهيق ، وصلصلة ، وخرير ، ونظائرها ، مثلا ، راعى ناحية الصوت فى المدلولات ، فقلدها بحركات وسكنات تشابهها . وواضع خشن وأملس ، التمس محاكاة الملاسة والخشونة بالأحرف المكوّنة لهاتين الكلمتين . ولا شكّ أنه اهتدى إلى هذه الأحرف بعد موازنة أثرها فى حلقه ومجارى صوته ، بالأثر الذى أحسّه إصبعه أو جلده من مقاربة الأشياء المُلْس ، والأشياء الخشنة . وواضع زمهرير لابدّ أن يكون أراد محاكاة الرِّعدة التى تحدث من البرد ، بأحرف ترتعد لها أَسَلة لسانه ، أو تجاويف حلقه . وأمثال هذه الكلمات التى ذكرناها ، موجودة فى سائر اللغات ، نحو كلمة Hiss ولفظة Bang و Flesh الإنجليزيات . والحديث العهد بالعربية ، كالحديث العهد بالإنجليزية ، يحسّ فى كلّ هذه الكلمات التى قدمناها تعبيرا قويا ، ويقبلها قلبه بمجرد تلقّيه لها . ولو أمكن أن توصف لفظة بالحُسن لذاتها ، لكان هذا النوع من الألفاظ أولَى شىء بهذا الوصف ، لأنها ليست مجرّد رموز ، وإنما كلّ واحدة منها قطعة فنية فى ذاتها . والذين يقولون بأسبقية الشعر على النثر ، يرون فيها حجة قويّة لهم . إذ أن واضعها لابد أن يكون قد أحس بشعور قوىّ إزاءَ المدلولات التى صاغها من أجلها ، ولا بدّ أن سامعيه قد أدركوا مراده

بمجرّد نطقه بها — فإن لم يكن هذا شعرا ، فماذا يكون ؟ والراجح عندى أن هذا النّوع من الكلمات كان أسبق إلى الوجود من غيره . لاأعنى فى صيغته هذه النهائية التى نلقاه بها فى قواميسنا ، ولكن فى صيغته الأصلية الأولى قبل أن تتلاعب به يد الزمن .

غير أن أمرا واحدا يمنعنا من صفة هذا النوع من الألفاظ بالحسن المتأصل . وهو أنه عُرْضة للاستعمال السّيئ ، كما أنه عرضة للابتذال وعوامل التطوّر التى يخضع لها كل شىء .

والصنف الثانى من ألفاظ الفصيلة الوصفية ، وهو الفاقد — أو الشبيه بالفاقد — لوصفيته ، نعنى به نحو القَريحة والذكاء والطَّبَع [بالتحريك ، بمعنى الطمع] ، فهذه كلمات بنيت على المجاز والتشبيه . فالذى وضع القريحة ، مريدا بها الفطنة ، شبه مدلوله بقريحة البئر أو بالماء القَراح ، ثم استعار المشبه به للمشبه . والذى وضع الذكاء لنفس المعنى ، شبه مدلوله بالنار المشتعلة . [إذ أصل الذكاء هو الاشتعال] ثم استعار المشبه به للمشبه . وواضع الطَّبَع ، شبه الطمع الشديد بالصدأ يركب القلب ، وأصل الطَّبَع : الصدأ . وواضع كلمة « خَفْق » للفضاء العريض ، أجراها على المجاز المرسل بعلاقة الحالِيَّة ، لأن الخفْق : هو اضطراب الريح . وهلمّ جرّا . وأكثر الكلمات من هذا النوع تنسى أصولها ، وتصير رمزية محضة . ولكن بعضها يبقى فيه نفس من أصله الأوّل . والفحول من الشعراء هم أحرص الناس على تذكّر الأصول فى هذا الباب ، لأن ذلك يعينهم على الدقة فى التعبير ، التى هى مراد الشاعر . وقلّ أن نجد منشئا فحلاً يصف القريحة بأنها وقّادة ، أو الذكاء بأنه منساب فياض متدفق ، وإن كان مثل هذا يجوز الآن بعد اكتشاف النفط ، فهو سائل ومشتعل .

وقد يَجمَعُ الله الشّتيتين بعدَما يظنّان كلَّ الظّنّ أنْ لاتلاقيا

وأما القسم الرّمزى من الألفاظ ، فهو نحو : « أسد ، وبيت ، وسمكة ، وسافَرَ ومسافر ، وثمر ، وزهر ، وأزْهَرَ ، وفرحان ، ومجتهد » ، وأكثر هذه الجوامد والمُشتقّات التى تدور فى اللغة . وغير خاف أن الدلالة فيها جميعها ترجع إلى التواضع

والاصطلاح . ولو كانت اللغة سمّت الأسد عَنْزا ، أو سمّته سافرَ، لجرى الاستعمال على ذلك . ولو كانت وضعت « حمارًا » أو « سَبَح » لمدلول « ذَهَبَ » لجرى العرف على ذلك . والراجح أن أكثر هذه الكلمات لها أصول وصفية ، ولكن الزمن قد جرّ عليها ذيل العَفَاء . فهى الآن رموز لاأكثر ولا أقل . وهذه لايُعقل أن توصف ذواتها بحُسن أو قُبح .

الألفاظ والبيئة :

إن أردنا تشبيه البيئة بشكل هندسىّ ، فأشبه الأشكال بها هو المكعب . ويكون الزمان والمكان بمنزلة الطول والعرض . ويكون المجتمع بطبقاته المتمايزة بمنزلة الارتفاع ، والإنسان الواحد واقع تحت أبعاد البيئة الثلاثة معا ، وهى تحدد موضعه من الدنيا ، ويضاف إلى كلّ ذلك نفسه وذاته . وبها يتميز عن سواه ممن ينتمون إلى عصره ومكانه وطبقته الاجتماعية ، حتى إن منهم من يكون له أخا أو توءَما . والألفاظ تابعة للإنسان لاحقة به ، فهى تقع تحت تأثير جميع هذه العوامل التى تفعل فيه ، فلا بدّ من اعتبارها جميعا حين نعرض لدراسة الألفاظ ، لاسيما ونحن نطلب هذه الدراسة سعيا وراء القيم الجماليّة الفنّية المتعلقة بالألفاظ . وهذه القيم تظهر نسبتها جلية ، إذا أدخلنا عامل البيئة فى حسباننا .

الزمن :

نحن إذ نتحدّث عن أثر الزمن على الألفاظ هنا ، إنما نعنى أثره على ألفاظ اللغة الواحدة ، التى تمّ نضجها واستواؤها [لو كان يتمّ لشىء فى هذه الدنيا نضج واستواء] وصارت لها قواعد ثابتة ، وأصول معروفة ، كاللغة العربية مثلا ؛ إذ الحديث عن أثر الزمن فى الماضى السحيق ، والحديث عما عسى أن يكون أثره فى المستقبل البعيد ، يخرج بنا من مجال نقد الشعر إلى فلسفة اللغة ، وربما إلى الفلسفة المحضة . وكاتب هذه السطور لايملك من أدوات ذلك كثيرا أو قليلا .

وأوضح آثار الزمن فى ألفاظ اللغة الواحدة أنه يلعب بحظوظها . فتارة يذيعها ، ويشيعها . وتارة يخفيها وينفيها . وآنا يقرنها بهذا المعنى . وآونة بذلك المعنى ، تبعا لتباين العصور وتطوّر الأذواق ، وتنوّعها بحسب طبقات المجتمع والعوامل الثقافية والنفسانية والأخلاقية التى تؤثر فيها . خذ مثلا أثر العصور فى اللغة الواحدة ، تجد أن بعض العصور تميل إلى الزخرفة فى التعبير ، وبعضها إلى البساطة ، ومنها ما يؤثر اللفظ القصير ، ومنها مايؤثر التطويل . وحظوظ الكلمات تنخفض وترتفع تبعا لهذا .

ثم إن ظروف الحياة فى عصرٍ ما ، كثيرا ماتباين العصور التى قبله أو بعده . فالجاهلىّ مثلاً ، لم يكن يهتمّ بالتجارة أو المعاملة المالية اهتمام البغدادىّ العباسىّ . وهذا لم يكن يعرف شيئا عن السكك الحديدية التى هى من الأشياء المألوفة فى حياة العصرىّ . ومثل هذا التباين قد ينشأ منه تباين فى مدلول الكلمة الواحدة ، مع احتفاظها بمعناها الأصلىّ . كلمة « سِكّة » مثلا ترتبط فى ذهن الجاهلى بسكة النخل ، وفى ذهن العباسىّ إن لم يكن من طلاب الأحاديث والمرتادين لمجالس أبوى العباس ، ترتبط بسكة النقد ، وفى ذهن المعاصر تترتبط بالسكة الحديدية . وكلّ هذه الارتباطات تُضْفِى جانبا من الغموض على معناها الأصلىّ ، وتحصر دائرتها فى الاستعمال . وخذ كلمة تجارة مثلا ؛ أتظنّ الجاهلىّ كان يلبسها لونا قريبا مما نلبسه إياها نحن الآن حين نقول « كلية التجارة » مثلا ؟ وانظر فى قول النهشلىّ :

ولقد أروحُ على التّجارِ مُرَجَّلاً مَذِلاً بمَالِى لَيِّنًا أجْيَادِى[1]

ألا تجدك ، مع علمك بأنه قصد الخمّارين بقوله « التّجار » فى هذا البيت ، لاتستطيع أن تصرف عن ذهنك صورة « الدكاكين » ذوات الرفوف التى نراها فى مدننا العصرية ؟ وهنا ننبه إلى عامل نفسى مهمّ ، له صلة وثيقة جدا بكلّ ما تحدثه العصور من تطوّرات فى اللغة الواحدة وفى غيرها ، وهو عامل تداعى المعانى . وأثر هذا العامل

(١) المفضليات ، من قصيدة الأسود بن يعفر : « نام الخلى » .

فى تكوين الأذواق من عصر إلى عصر بليغ للغاية . انظر مثلا كلمة « صُرْم » بمعنى « هَجْر » كيف ربطها الذوق منذ أواخر العهد العباسىّ إلى اليوم بكلمة « سُرْم » التى تنطق عند العامة بابدال السين صادا ، فكان هذا سببا لتهجينها حتى لو وردت فى شعر جاهلىّ قديم . وبحسبك أن تنظر إلى الدواوين القديمة التى تخرجها المطابع الآن ، لتجد أن المحققين لايكادون يحجمون عن تغيير المصدر « صُرْم » ، الكثير الورود فى الشعر القديم بمعنى الهجر ، إلى المصدر « صَرْم » فرارا من المعنى القبيح ، مع أن معنى الصَّرم بفتح الصاد عند الأوائل كان يسرى على جملة القطع ، لاعلى الهجر خاصة . وأحسب أن أدباء السودان قبل خمسين عاما لم يكونوا يجدون غضاضة فى « صُرْم » الجاهلية ، لجهلهم « بصُرْم » العامية . أما الآن ، وقد استعارت دارجة الشوارع هذه اللفظة من الدارجة المصرية أو السورية ، فجملة السودانيين يحسون نحو هذه الكلمة بنحو مما كان يشعر به ابن الأثير . وما قلناه عن « صُرْم » يصح أن يقال عن « كَنيف » الجاهلية ، بمعنى المكان الذى تكتنفه الأشجار أو نحوها ، وعن « مُسْتَراح » بمعنى مكان الاستراحة ، وهى الآن معناها المِرْحاض ، وعن « نَكَح » بمعنى تزوّج ، وعن « أتى يأتى » إن وردت فى نحو قول شوقى :

وطوَى القُرونَ القَهْقرى حتى أتى فِرْعَوْنَ بين طعامِهِ وَشَرَابِهِ

وإن كان عامل تداعى المعانى أظهر فى هذا الحرف الأخير من عامل التطوّر الزمنىّ .

الزمن وتطور الأخلاق :

الشُّعور الأخلاقىّ يتطوّر من عهد إلى عهد . فتسقط قِيَم ، وترتفع قيم . وقد تبقى القيم فى جوهرها واحدة دهورا طويلة ، ولكن مظاهر التعبير عنها تختلف وتتباين ، خذ الفحش (بالمعنى الجنسىّ) مثلا . ما أحسبه إلا قد كان ممقوتا منذ زمان بعيد ، وبين أمم عديدة . ولكن لاشىء أكثر تفاوتا من الطرق التى يعبر بها الناس عن

استنكارهم للفُحش . منظر الفتيات العاريات الأفخاذ فى البلاجات الحديثة فاحش جدا فى نظر الكثرة الكاثرة من المسلمين . والطريقة الصريحة التى يتحدث بها كثير من المسلمين عن بعض الأمور الجنسية فاحشة جدا فى نظر فتيات البلاج الإنجليزيات أو النرويجيات مثلا . وتأمل جريرا والفرزدق ، كيف يشعر العربىّ ، لا بل الشرقىّ المعاصر . . . لا بل قد كان العباسىّ يقشعرّ من إقذاعهما ! ألا ترى أنهما لم يكونا ليفحشا كلّ هذا الفحش لو كان الشعور الأخلاقى على عصرهما ينفر من ذلك ؟ وقس عليهما أصحاب الغزل بالمذكر ، وابنَ حجاج وابن سكرة والواسانى وجماعة ممن ذكرهم صاحب اليتيمة . وما أحسب القارئ العصرى إلا مشمئزّا نافرا لو وقع بصره على بعض الألفاظ التى وقعت فى أشعار هؤلاء ، والغالب على عصرنا هذا بين طبقات المثقفين وأشباه المثقفين دقة الحسّ فى المقامات العامة ، إزاء كلّ لفظ من ألفاظ الجماع الصريحة ، والألفاظ التى لها مساس بالفضلات الجسمية . وهذه الدقة فى الحسّ ناشئة عن نوع من النفاق الاجتماعىّ ، مصدره الشعور الأخلاقىّ السائد — وهو شعور مستمدّ من القيم البرجوازية الأوربية . وأوضح دليل أقدّمه لك فى هذا الصدد — سوى ما سبق من الأمثلة — هو أن الفقهاء ، وقد كانوا أجرأ الناس على ذكر ألفاظ الجماع فى معرض الدرس ورسائل الطهارة وما بمجراها ، لايكادون يقدمون اليوم على التلفظ بأمثال : « ألطفت المرأة : أى أدخلت يدها بين شفريها » ، وأمثال : « حتى تغيب الحشفة فى فرج » ، ونحو : « مَذْى ووَدْى ومَنِىّ » فى المقالات التى ينشرونها فى الصحف العامة والمجلات الدينية . وقد كانت مجالس الفقه فى الزمان الماضى هى المكان « المحترم » ، الذى يمكن أن ينفس المرء فيه عن الكَبْت الأخلاقىّ المتعلق بالألفاظ ، إن لم يكن هذا المرء من شعراء المجون والسخف أو هُواتهما . وقد تغيرت الأحوال الآن ، فأصاب الفقهاء لَفْح من تزمت البرجوازية الأوربية ، عن طريق طبقة المثقفين من الأفندية ، فجعلوا يتزمتون كما تقتضى روح العصر . وأوصدت الأبواب أمام الأشعار الخليعة ، فانزوت إلى أركان يلحظها منها الذوق

العصرى شَزْرا . وأصبح المجال « المحترم » الوحيد الذى يمكن أن ينفس فيه المرء عن رغبته فى التعبير الفاحش ، هو مجال علوم النظر الحديثة ، وبخاصة علوم الاجتماع كالانثروبولوجيا . وللبروفسور مالينوسكى فى وصف القبائل الهمجية ، مثل سكان مالنزيا وجنوب الباسفيك ، شطحات شبيهة بشطحات أبى حامد الإسفرائينى فى معراض تعيين مواقيت الإمساك عن العلاقات الجنسية فى شهر رمضان .

والحقّ أن محلّ التصريح بالألفاظ الجنسيّة وما إليها ، لاهو الفقه ، ولا هو علوم النظر ، لأن هذه جميعا تحاول علاج الأشياء من ناحية موضوعية ، واتخاذها مجالا للتنفيس عن هذا العبث الإنسانى ، يفسد موضوعيتها إلى حدّ كبير . وقد خطا الطبّ والبيلوجيا — عن طريق المصطلحات الجافة — خطوات نحو التحرّر من هذه الذاتية العابثة . ولا بدّ أن تلحق بهما الانثروبولوجيا وعلوم الاجتماع ، إذ لايستغنى علم حديث عن المصطلحات . فإن فعلت كلّ هذه ذلك ، فإنه من المؤسف حقا أن يفتح الناس بابا علميا آخر ليتخذوه مجالا للعبث ، ريثما ينضج ويكتمل ، أو يذوى ويموت . ذلك بأن المحلّ الوحيد اللائق للتصريح بالألفاظ الجنسية ونحوها ، هو مجال الأدب بفرعيه : الشعر والنثر . وما زال تدخل العامل الأخلاقىّ ، أو النفاق الاجتماعىّ منذ زمان بعيد (وقد زادت سطوته فى عصرنا الحاضر) يحدّ من حرية الأدب فى هذا المضمار ، ويُجْبره على الثورة بعد الثورة . فآنا تكون ثورته من النوع الفاسق المخمور ، كما فى شعر أبى نواس ؛ وآنا من النوع الضاحك المستهتر إلى درجة الكلبية ، كما فى شعر ابن حجاج وابن سكرة ؛ وقد تكون من الضرب الحانق المعقد الساخر الملتوى ، كما فى أدب د . ه . لورنس ، أو المسلى المتخابث ، كما فى قصص ألف ليلة وليلة وأساطير شوسير . ومن الإنصاف لمؤلفى ألف ليلة وليلة ولشوسير وبوكاشيو وصاحب الأغانى ، أن نقول : إن صراحتهم ليس فيها عنصر التحدّى والشُّذوذ ، الذى نجده عند أبى نواس وبشار وابن حجاج و د . ه . لورنس وبعض المعاصرين ، وإنما قد أطلقوا أقلامهم فى غير ما خوف ولا وجل ولا طلب لتحدّى الشعور

الأخلاقىّ والمقاييس الاجتماعية . والفضل فى ذلك يرجع إلى أنهم لم يعيشوا فى بيئة القرن العشرين المعقدة ، ولا بيئة القرن التاسع عشر الأوربية ، كما يرجع إلى صفاء نفوسهم وانبساطها .

المكان :

نتحدّث هنا عن أثر المكان فى اللغة الواحدة . ثم نذكر القارئ بما ذكرناه آنفا من أن المكان ما هو إلا أحد أبعاد البيئة الثلاثة ، وكلّ ما هو واقعٌ تحت تأثيره فهو أيضا واقع تحت تأثير الزمان والعصور والطبقات وما إلى ذلك .

وأثر المكان فى ألفاظ اللغة الواحدة أوضح من أن يدلّل عليه ، بحسبك برهانا تعدّد اللهجات . مثلا كلمة «حَبُّوبة» فى الشأم معناها : «حبيبة، أوخطيبة»، وفى السودان معناها «جَدّة» . ولوسأل شامىّ سودانيا «ماعمر حبوبتك» ؟ ربما أجاب : ثمانون أوتسعون ، ولا يملك الشامىّ إلا أن يَدْهَش إزاء هذا الجواب ، ويَعجب لهذا الذى يخطب من ذهب الدهر بكلّها ، وقد عيرّ الشعراء مَنْ خَطَبَ النَّصَف من النساء ، وقالوا فيها :

وإن أتَوْك وقالوا إنها نَصَفٌ فإنّ أفضَلَ نصْفَيها الذى ذَهَبا

ومعاجمُ اللغة مفعمة بالاختلافات التى تحملها كلمة واحدة بين لهجات العرب الكثيرة . كلمة تَخَوَّف مثلا معناها عند هُذَيل : التنقص ، وقد وردت فى التنزيل بهذا المعنى ، وقد زعموا فيما زعموا أن مالك بن نويرة لم يقتله إلا جهل ضرار ابن الأزور بلغة قريش ، فقد أمره خالدٌ أن يدفئ قتيله ، فما كان منه إلا أن أبرده بردا لادفء بعده إلا فى نار جهنم .

ومن أبلغ آثار المكان على الكلمات (سوى اختلاف معانيها وتنوّع مدلولاتها من موضع إلى موضع)، مايضفيه على الكلمة الواحدة من لون حسن أو لون قبيح

من دون تأثير كبير فى جوهر مدلولها . مثال ذلك كلمة « طِيّاز » ، فهذه الكلمة تستعمل فى مصر مكان « أرداف » المستعملة بشمال السودان ، و « كَفَل » و « صُلْب » المستعملتين فى وسطه وسائر أجزائه . ولن يفكر سودانى قطّ أن يستعملها هذا الاستعمال ، لأن معناها عنده مرتبط بلون قبيح يدخلها فى فصيلة الألفاظ الفاحشة . وكلمة « طيب » لها لون خاصّ فى مصر لايوجد فى السودان ، وهكذا ، ولا فائدة فى الاستكثار من الأمثلة ما دام المقصود واضحا بينا .

الطبقات :

كما يؤثر المكان والزمان فى الكلمات ، فتختلف معانيها وألوانها ودرجاتها من الحُسن والقُبح ، تبعا لاختلاف الأمكنة والأزمنة ، فكذلك تفعل الطبقات الاجتماعية : الألفاظ المتداولة المألوفة بين السودانيين الآن مثلا ، غير تلك التى كانت مألوفة بالأمس ، وغير تلك المألوفة فى مصر الآن أو بالأمس ، وهى بين السودانيين أنفسهم تتباين ؛ فألفاظ العلية غير ألفاظ السفلة ، وألفاظ أهل الحرف والصناعات مباينة لألفاظ أهل الأقلام والمثقفين . وألفاظ المتصعلكة غير ألفاظ المهذّبين المحترمين . لا بل إن النساء يتداولن بينهن ألفاظا لايتداولها الرجال . وهن فى كلّ ذلك يختلفن باختلاف طبقاتهن . وهذا الذى نراه من تباين ألفاظ اللهجة الواحدة المستعملة فى السودان تبعا لتباين الطبقات ، موجود نظيره فى الشأم وفى مصر وغيرهما من الأقطار الناطقة بالعربية .

والطبقة التى كان أمرها عاليا فى دولة الأدب إلى القرن الماضى فى الشرق العربىّ ، هى طبقة العِلية من علماء وأمراء وحاشية تدور حولهم . ثم آل أمر الأدب إلى الطبقات المتوسطة فى عصرنا الحاضر ، وليس معنى كلامنا هذا أن طبقات السفلة والعامة والسوقة والغوغاء لم يكن لهم أدب فى الماضى ، كلا ؛ ولكن أدبهم كان من نوعٍ

محتقر . لم تتسع له صدور الكتب . وانفراد العلية بأمر الأدب فى الماضى ، كان يملى على الكتاب والشعراء ذوقا خاصا فى تخير الألفاظ ، هذا الذوق تسيطر عليه الرغبة فى تملق الفضائل الاجتماعية التى يحرص عليها العلية ، والازدراء لكلّ شىء يصدر من السفلة ؛ فكلمات السوقة والغَوغاء كان محرّما على الأديب استعمالها ، خشية أن يتسرّب منها قمل أو بقّ إلى ملاءة الأمير أو الوزير ، أو ثياب الحاشية الظرفاء . والكلمات التى لاتستعملها السوقة ، ولكن يجوز أن يربطها العقل بظاهرة سُوقية ، تجرى هذا المجرى . وقديما عابوا على المتنبى قوله :

وكُلُّ طَرِيقٍ أتاهُ الفَتَى على قَدْرِ الرجل فيه الخُطا

لا لشىء إلا لأنه استعمل مثلاً تنطق به العامة . وقد مات كثير من الكلمات القديمة المعبرة لتعاطى العامّة إياها ، وسمّىَ هذا التعاطى بالابتذال والسوقيّة . وكلمة : « عِلْق » التى يتمثل بها البلاغيون كثيرا ، ما دهاها فأنزلها من مرتبة « العلق النفيس » إلى معنى الأُبنة ، إلا استعمال الدهماء لها ، ممن تكون المحبة والغرام والشوق والعشق ونظائرها من الكلمات عندهم من قبيل مرادفات المعنى الآخر . ومتذ استولت الطبقات المتوسطة على دولة الأدب ، أخذ كثيرٌ من أساليب العلية الماضين وألفاظهم فى الانقراض ، [وحسبك دليلا على ذلك ، أننا لانستعمل الآن طريقة القاضى الفاضل فى استهلال الرسائل ، ولا نتكلف الكلمات الديوانية التى كان يتكلفها كتاب القرن الماضى] ، كما تسرّب كثير من الكلمات التى كانت تُعدّ مُبتذلة وسوقيّة إلى ساحة الأدب الرفيع .

ولا أشكّ أن انتشار القراءة مكان الأمية التى كانت غالبة على الناس ، وتغلّبَ الصحافة على ميدان التعبير فى أكثر البلاد ، سيجلبان تغييرا عظيما جدا فى الأساليب الأدبيّة . وشدّ ما أخشى أن يصير تملق الدهماء هو الغرض الأدبى الأوّل . وهذا بطبيعة الحال سيميت أكثر الألفاظ التى تُستحسن الآن ، ويبدل مكانها ما نسمّيه سوقيا ومُبتَذلا . ولعلّ جريدة ال Daily Mirror البريطانية ، مثالٌ من أمثلة هذا الاتجاه الخبيث فى الأدب الحديث .

هذا ، ومما يلائم ما نحن بصدده ، أن نذكر أن الشيوعيين السوفيتيين قد بلغ بهم الجنون المذهبيّ ، والتطرّف السياسيّ ، أن شغلوا أنفسهم دَهْرًا بتحديد موقف اللغة من الطبقات . وقد كان بعضهم فيما نمى إلينا ينادون بمحو اللغة الروسية الأدبية محوا تاما ، زاعمين أنها قد كانت لغة « الأرستقراطية » و « البرجوازية » و « الظلم » وهلم جرّا ، ويدعون إلى استبدالها بلغة أخرى شعبية ، أشدّ اصطباغا بلون « الواقع المادّى » كما يقولون . ولكن ستالين تدخل فى الأمر ، لاأدرى أبالحجة أم بالسيف ، وأقنع المتطرّفين بأن اللغة القديمة ، وإن كانت من اختراع ضباع القياصرة والأرستقراطية ، فهى صالحة كل الصلاحية لخدمة « الكادحين » ، والتعبير عن آلامهم وآمالهم . فارعوى المتطرّفون وأنابوا . وكفى عزاءً لهؤلاء المتطرّفين الذين قهرهم ستالين ، أن الصحافة الحديثة الهجينة سائرة فى ضوء نظرياتهم بخطا حثيثة . وعندما تَنْتَصِرُ الألفاظ السوقيّة «الواقعية» على ألفاظ المتأدبة من الطبقات الوسطى ، التى ورثوها عن العلية والأرستقراطية الماضين ، فمرحَى مرحَى لعِلْق وصُرْم بالمعنى المبتذل . والويل لعلق مَضِنَّة ، ولنحو « ولشرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها » ، ومن يدرى فربما امتدت أيدى الحظوظ حتى تنتشل أمثال جَحْمرش ، وخَنفقيق ، وزُلَّخَة ، من أعماق المعاجم ، لعدم ارتباطها الآن بطبقة من الطبقات . ولعلها — أعنى جحمرشا وأخواتها — لو أتيح لها أن تتمثل بالشعر الآن ، أن تنشد من قول أبى العلاء المعرىّ بيتيه :

سيطلُبنى رزقى الذى لو طلَبتــه ... لما زادَ والدُّنْيا حظوظٌ وإقْبالُ
إذا صدق الجَدُّ افترى العَمَّ للفتى ... مكارم لاتُكْرِى وإن كَذب الخالُ

المودة :

أوالموضة ، وهى كلمة إفرنجية يقابلها بالإنجليزية Fashion . و « المُودَة » بنت البيئة والتطوّر الزمنى . فهى على هذا فرع من ذوق العصر والمكان والطبقة . وهذا أوان تذكير القارئ بمكعب البيئة الذى وصفناه آنفا . « فالمُودَة » تختلف من عصر إلى عصر فى الطبقة الواحدة ، ومن طبقة إلى طبقة فى العصر الواحد ، ومن بين فترة

إلى فترة فى العصر الواحد والطبقات المختلفة . كما أنها تختلف باختلاف الأمكنة فى كل ذلك . وأهم ظواهر « المُودَة » . أنها قصيرة العمر ، وأنها مع ذلك لاتموت مرة واحدة — أعنى أنه إذا ماتت « مُودَةٌ » ما فى فترة من الفترات ، فكثيرا ما تنبعث فى فترة أخرى مقبلة كأنها شىء جديد . وإذا ماتت بين طبقة من الطبقات ، فكثيرا ما تشيع بين غيرها ممن دونها أو فوقها . وإذا كسدت سوقها فى مكان ما ، فربما تنفق فى مكان آخر . « والمُودَة » تتناول الحديث والألفاظ ، كما تتناول غير ذلك من مظاهر الحياة . كالملبس والمأكل والأغانى وضروب التسلية ، ومختلف مذاهب السلوك العامّ والخاصّ . والأدباء ، من ناثرين وناظمين ، من أشدّ الخلق تأثرا بعامل « المُودَة » ، بالرغم مما يدّعونه من الحرص على الخلود . والارتفاع فوق القيود المادّية التى تمثلها عناصر البيئة المختلفة . خذ هذه الألفاظ : التمثارة ، الأزاهر الأحلام ، الظلال ، الأشباح ، الأحاسيس ، المشاعر ، البلبلة ، الرفش ، المعول ، الآهات ، الإشعاع ، الهدهدة ، يناغى ، ينغّم ، وهلم جرّا ، ألا تجدها محببة إلى طائفة كبيرة من أدباء اليوم ؟ أتحسب أن لها فى ذواتها جرْسا مُفرِحا ؟ لا أشكّ أن بعض التافهين يحسب ذلك ، ممن قصاراهم فى النقد أن يهمسوا ويخفضوا من جفونهم ، ويدّعوا أنهم قد غمرتهم سبحات نور الفنّ . ولكن مالنا وللتافهين . فالذى لايقبل الجدل أن « المُودَة » هى التى حسّنت هذه الكلمات .

وهنا نتساءل عن الأسباب التى تبعث « المودات » من حين إلى حين . والجواب عن هذا يطول . وربما أخرجنا عن غرض هذا الكتاب ؛ وبحسبى أن أقول : إن الفراغ والنفاق والضعف البشرى والزهوَ وطلب التبجّح ، كلّ ذلك من بواعث « المُودَة » ، وإن شئت أن تضيف إلى هذه المناقص شيئا مماذكره فرويد وتلاميذه ، فأنت فى حلّ من ذلك . وفى دولة الأدب بخاصة يكفى أن نشير هنا إلى أن تطوّر المذاهب الفنية . والآراء السياسية والاجتماعية . له أكبر أثر فى بعث « المودات » الأدبية . مثلا المذهبُ الوراءَ الواقعىّ [1] فى الفنون الجميلة ، أدّى إلى اختراع ألفاظ

(١) نستحل لأنفسنا هنا إدخال أل الموصولة على وراء تبعا لمن قال :

مَنْ لايَزَالُ رَاضِيا على المَعَهْ فهو حَرِ بعيشَةٍ ذَاتِ سَعَهْ

[أو استعمال ألفاظ] خاصة بين الفنانين ، سرعان ما تلقفتها جمهرة الأدباء ، وصارت « مودة » بينهم إلى حين . والأدباء مبتلون بادّعاء المعرفة لما لايحسنونه منذ أن وضع ابن قتيبة كتاب « أدب الكاتب » ، وقبل ذلك بدهور . والمذهب المادّى الجدلىّ فى السياسة أدّى إلى اختراع ألفاظ خاصة ، سرعان ما التقطها الأدباء ، وهجوا بها فى نثرهم وشعرهم . والأدباء فى الشرق أسرع تهافتا إلى « المُودات » من إخوانهم الغربيين ، لفقدان الأصالة الفكرية بينهم فى الكثير الغالب ، فهم يعوّضون عن هذا الضعف باستحداث « المُودات » ؛ إذ « المُودَة » أبدا تلبس لونا برّاقا ، يجعلها للناقد السطحى أشبه شىء بالأصالة .

خذ الكلمات : « كِفاح » ، « كَدْح » ، « استغلال » ، « تمييع » وهلم جرّا . فكلّ هذه كلمات حسّنتها «مودة» عابرة وثيقة الاتصال بالمذهب اليسارى السياسىّ ، وجعلت لها عند بعض عشّاق هذا المذهب ، من متوسطى الثقافة ، رنينا خاصّا . ومما يحسُن ذكره فى هذا المجرى ، أن كلمة Peace الإنجليزية ، ومعناها « السلام » ، قد ألبسها استعمال الشيوعيين ورفقائهم لها صبغة خاصة ، حتى إن جريدة الأبزيرفور The Observer والتيمس The Times وضرائبهما من الصحف الرزينة ، اضطرّت إلى طبع هذه الكلمة بين علامات التنصيص هكذا « Peace » كلما دعت الحاجة إلى ذكرها ، وما لبث هذا التنصيص أن برز فى صور صوتية على ألسن الخطباء وفى المجالس ، حتى صار فى ذاته « مودة » .

ومن أهمّ ظواهر « المودات » أبد الدهر أنها تثير حولها جدلا كثيرا . ولا يمكن أن يقف المرء منها موقف المحايد . فأنت إما تعجبك الجُمّة الغلامية فى شعور النساء ، وإمّا لا . وإما تميل إلى « ذنب البطة » فى رءوس الرجال ، وإمّا لا . والغريب فى الأمر أن تحمسك لهذا أو ذاك يبوخ مرّة واحدة بمجرّد اختفاء « المودة » . وكذلك تعصبك على هذا أو ذاك . فانظر كيف تعبث المودة بالعقول ؟ وعلّ هذا أن يعين على تفهّم

أثرها البليغ فى الأدب ، وعبثها بأساليبه وألفاظه ، وتحكمها المفرط فى أذواق المؤلفين والنقّاد .

المزاج والألفاظ :

المزاج فرعٌ من البيئة ، وهو خاصّ بالأفراد . وبما أن الأفراد يختلفون فى الآراء والأهواء ، وفى كثير من الطبائع والمشارب ، سواءٌ أكانوا فى عصر واحد ، أم من طبقة واحدة، أم من بلد واحد ، أم من أب وأم وظروفٍ متشابهة كلّ التشابه ، فالألفاظ تتأثر بهذا الاختلاف جدا . والعوامل النفسانية المتعددة كالشعور بالنقص ، وكمحبة التَّفْج ، والرغبة فى الشذوذ ، وكتداعى المعانى ، وكانقسام الشخصية ، على تفاوت كلّ ذلك فى الضعف والقوّة بحسب الأنفس الواقعة تحت تأثيره ، يخلق أمزجة مختلفة فى تذوّق الألفاظ . كلمة « سلسل » قد تبدو لطيفة مليحة عندى أنا ، ولكن آخر ممن لايستطيع أن يصرف ذهنه عن « سلس البول » الذى مرّ به فى دروس الفقه ، قد لايستحسنها . وكلمة شجاع قد يمرّ بها قارئ فى موضع فلا يرى بها بأسا ، ويراها آخر فتثير القىء فى حلقه . والمرأة التى يدعوها زوجها « ياحبيبتى » و « ياروحى » فى مقام التهكم ، ربما تنفر من هذين اللفظين إن عرضا لها فى شعر أو نثر . والخطاط الذى يعجبه رسم الميم على الورقة ، قد تروقه أمثال مكلوم ومحروم ومزكوم ومحزوم . وإن كان يجد عناء فى رسم الدال ، فربما يكره نحو : ودود ، ومودة ، ودار ، ودهماء . وقد يعجب بعض الناس الصفير الذى فى حرف الصاد لارتباطه فى عقلهم الباطن بمعنى من المعانى ، فيودون أن لو كان الشعر جميعه من قبيل قول أبى الطيب :

وأمْواهٌ تَصِلُّ بها حَصَاها صَلِيلَ الحَلْيِ فى أيْدى الغَوَانى

ومهما يكن من شىء ، فالمزاج لايخضع لأحكام المنطق ، ومامن ناقد أو شاعر أو ناثر ، إلا وهو واقع تحت سيطرته . وكثير من النقاد يتجنون فى أحكامهم على الشعراء

بحكم المزاج فقط . أذكر من هذا الباب أن المرحوم الرافعيّ تجنى على العقاد جنايات عِدّة من هذا القبيل . فى كتابه على السَّفُّود . مثلا نقده : « آه لو يقرب البعيدُ الخ » فقد حكّم مزاجه . وافترض أن البعيد هنا بمثابة « ابن الكلب البعيد » . وكثير من الشعراء تستلطف أمزجتهم كلمات خاصة . فيتعبون الناس بتكرارها . من ذلك « قم » فى شعر شوقى . و « ذا » عند المتنبي . والناثرون يجرون هذا المجرى .

وعامل المزاج كما لايخفى داخل تحت تأثير العوامل التى ذكرناها آنفا ، إذ هو لايسلم من أن يصطبغ بلون البيئة على أية حال . إلا أنه لقوّة اتصاله بصميم الفردية الإنسانية أهم العوامل جميعا . وله القوّة المرجحة فى ازدراء بعض الألفاظ ، واحترام بعضها . وبما أنه موغل فى الذاتية ، فهو العقبة الكئود فى سبيل النقد ، كلما أراد أن يطلق أحكاما عامة . ويضع مقاييس تقاس بها القيم الأدبية . ومع هذا فالناقد الحقّ لا بدّ يبحث عن وجه علمى صاف ، يهتدى به فى دراساته . وهذا مطلب عزيز ، وقُصارَى جهده أن يقتدى ما استطاع بأذواق النُّقّاد الأفذاذ الذين سبقوه ، ثقة بأن أمزجتهم قد ارتفعت عن مُستَوى الذاتية المعتاد ، لما صقلها من مواظبة العلم والدرس والتجربة والتحرّى . ولكن تحديد النُّقّاد الأفذاذ نفسه محلّ للجدل . وجميع ماذكرنا من العوامل يؤثر فيه تأثيرا شديدا .

مقاييس الألفاظ

مما تقدّم يرى القارئ أن ابن الأثير على سطحيته لم يكن مخطئا كلّ الخطأ حين زعم أن الكلمات تنقسم إلى حسن وقبيح بطبيعتها ، إذ أحكام البيئة والمزاج و « المودات » تُلَوِّنُ كثيرا من كلمات اللغة بألوان من الحُسن والقُبح . لايستطيع المرء أن يصرف ذهنه عنها . وخطأ ابن الأثير الأساسىّ فى أنه لم يتنبه إلى أن هذه القسمة منشؤها ظروف الحياة الطارئة ، واستعمال الناس الخاضع لقوانين التغيير ، لانفس طبيعة اللغة من حيث مخارجها . وقد جرّ هذا الخطأ ابنَ الأثير إلى أن يفرض ذوقه وذوق

طبقة خاصة من معاصريه، على طلاب الأدب العربى جميعا، من لدن معدّ بن عدنان إلى يومنا هذا .

ومذهب الجُرْجانىّ: فى أن الألفاظ فى ذواتها مجرّدة من الحُسن والقُبح، حتى تحسّنها التراكيب أو تقبّحها، على عمقه ومتانته، مبنىّ على تناسى العنصر البشرىّ، كما قد أسلفنا من قبل؛ ولو قد كان الناس كلهم يفكرون تفكيرا علميا موضوعيا، لحقّ عليهم أن يتقيّدوا بقواعد عبد القاهر، فى حكمهم على الأساليب الأدبية، ولكانت هذه القواعد نهاية فى الجودة والدقّة. ولكن الناس يحسّنون ويقبحون ويستهجنون ويستملحون، بحسب أمزجتهم وبيئتهم و «مُودَاتهم». وما أكثر ما يقسّمون الموسوعة اللُّغوية بأجمعها إلى حسن وقبيح، قبل أن تنتظمها التراكيب. متأثرين بظروف حياتهم، وأذواق عصورهم. ولا شكّ أن التأليف يتأثر جدا بكل هذا. أىّ الأدباء يقدم على استعمال كلمة يستسخفها معاصروه، مهما تكن قوية فى أداء المعانى التى يريدها؟ وأيهم لايطبوه استحسان معاصريه لبعض الألفاظ، أن يستعملها، كيما يسرّهم بها، ويكسب ثناءهم؟ قليل جدا من الأدباء من يأنفون من تملّق معاصريهم. وهؤلاء مبخوسو الحظّ فى الكثير الغالب.

والحقّ، أنه لامذهبُ الجُرجانىّ، ولا مذهب ابن الأثير يصلح أساسا لأن تُقاس به ملاحة الألفاظ أو سماجتها. وماتمتاز به قوّة جَرْسها أو ضعفه. لا بل إن كون الألفاظ بطبيعتها أحياء متحرّكة متغيرة متجدّدة، يجعل أىّ مقياس يُقاس به جمالها نسبيًّا جدا. وعندى أن أفضل ما يعتمد عليه النّاقد فى هذا الباب، هو القاعدة القديمة: «البلاغة الإيجاز».

ذلك بأن المعانى هى المرادة بالألفاظ. والمعنى قد يكفى فى التعبير عنه لفظ واحد. كما قد يحتاج إلى أكثر من ذلك. فمتى زاد الأداء اللفظى عما يحتاج إليه المعنى من كلمات، كى يصير ظاهرا واضحا، فتلك الزيادة إما ناشئة عن عىّ، وإما عن قصد

إلى التزيين والتحسين . ومحلّ الخلاف ليس هو الزيادات الناشئة عن العىّ والعجز . وإنما هو الزيادات التى أريد بها التزيين . فهذه تخضع لحكم البيئة ، وتختلف نظرات الناس إليها باختلاف الدهور والأمكنة . وإذا جاز لنا أن نشبه المعانى المؤدّاة فى القدر الذى تطلبه من الكلمات ، بالصور البشرية العارية ، فالزيادات المراد بها التحسين والتزيين ، تكون بالنسبة إليها ، بمثابة الثياب والأصباغ والحُلىّ والتهيؤ ، وما إلى ذلك بالنسبة إلى الصورة البشرية . والمُشاهد فى كلّ بيئة ، وفى كلّ دهر [إلا بين طبقات من المتنطّسين] أن الحسناء الحالِيَة مفضّلة على الحسناء العاطلة . ولكن الغريب فى الأمر أن مايعد حَلْيا ههنا ، قد يعد شَيْنا هناك . مثلا ، بعض الحسناوات المصريات يَشِمْن خدودهنّ وأذقانهن بالخضرة الثابتة . ويخبرنا لَبيد أن العربيات الحسان كنّ يجعلن على أيديهن كِفَفا من النؤور يجددن خُضرتها كلما بهتت ؛ قال فى المعلّقة :

أو رَجْعُ وَاشِمَةٍ أُسِفَّ نؤُورُها كِفَفًا تَعَرَّض فوقَهُنّ وِشَامُها

وفى شعر هُدْبة مايفيد أن الغوانى كنّ يضعن على أنوفهنّ الجادىّ ، فيبدون كأنهنّ راعفات ، قال :

تَضَمَّخْنَ بالجادِىّ حتى كأنما الْـأُنوفُ إذا استعرضتهنّ رَوَاعفُ [1]

والغربيات الإفرنجيات ، يضعن الحُمْرة على الشفاه . والشرقيّات يتحلين بالذهب ، ويخضبن بالحناء . وبعض الزنجيات يثقبن شفاههنّ حتى تصير كمشافر البُعْران . وما زالت المُوسَى تجرى فى خدود الحسناوات من السودان منذ دهر بعيد . وقلّ أن تجد قوما ألفوا عادة ، يستحسنون غيرها . فالزنجية ذات المِشْفر المثقوب ، كريهة المنظر عند البُجَاوية ذات الأنف الذى فيه السُبرَة . والهندية التى ترسل شعرها طويلا متدليًا ، وتكشف عن ساعد ، وتضع على جبهتها نقطة حمراء ، سمجةُ الصورة فى عين أمثال مارلين مونرو ، ممن يصفّفْن الجُممَ ، ويرسُمْن الحواجب بالقلم .

(١) سمط اللآلى لأبى عبيد البكرى : ٢٠٧ .

وبعد أيها القارئ ، فلعلّ هذه الأمثلة توضح لك أن التحسين والتزيين أمر نسبيّ للغاية . وأزيدك إيضاحا : فالمرأة الجميلة التى لاتعمد إلى نوع من التحسين والحلىّ ، ولا تغير صورتها التى براها عليها الخالق بأىّ تغيير ، مقبولة عند أكثر أجيال الناس . نعم ، قد تقول لها بعض نساء الزنج : هلاّ ثقبت شفتك وضخّمتها يا هذه ؟ وقد تقول لها بعض الهنديات : هلا تحلّيت الذهب ونقطت الجبهة ؟ وقد تقول لها بعض المصريات : اسم الله على هذا الحنَك ، لو جعلت عليه سِمة خضراء تصير لها جميع القلوب هواء ؟ وربما رغبت بعض قَهْرمانات السودان النيليّ فى تشليخها ، وفيما هو شرّ من ذلك ، لو قد وجدن إليه سبيلا . ولكنهنّ جميعا قد يحسدنها فى السرّ على سلامة بشرتها من الصنعة والتغيير .

وكذلك التعبير والأسلوب ، فالإيجاز هو المقياس الصحيح لجمال اللفظ وصورته وجَرْسه . وما من لفظ أدّى المعنى أداء تاما من دون زوائد ، إلا كان خاليا من العيب . لاتنقصه من آلة الجمال إلا الزينة التى هى موضع جدل وخلاف ، كما أن قيمتها نسبية إلى حدّ بعيد ، بحيث لايُدْرَى أهى فى الحقيقة قُبح أم حُسن .

وحدّ الإيجاز أن يكون اللفظ مقتَصَدا فيه اقتصادا لايخلّ بالغرض ، ولا تنفعه الزيادة . ومهما يكن من تعبير أوجز فيه صانعه ، واستوفى الغرض ، إلا كان جَرْسه حسن الوقع فى النفس ، إذ النفوس يعجبها وقع اللفظ القصير ، إن كان يحوى الفكرة الطويلة ، والمعنى الضخم .

ضرورة التحسين :

إذن فالمقياس الصحيح الذى نخرج به من هذا التمهيد ، لمعرفة جودة الجَرْس اللفظىّ ، هو الإيجاز . ويترتب على هذا إحدى نتيجتين :

أولا — أن نحكم على كلّ أداء زاد فيه اللفظ على المعنى ، بأنه غير جيد ،

محتجين بأن الذى عسى أن يكون فيه من المحاسن اللفظية ، إنما هو حسن اصطناعىّ وهمىّ ، لاحقيقة له ، إلا من جهة نسبية بحتة ، شأنه فى ذلك شأن الشفة الزنجية المثقوبة ، والجبهة الهندية المنقوطة ، والحنك المصرىّ الموشوم ، والخدّ السودانىّ « المُشَلَّخ » .

ثانيا : ألانرفض الزوائد إذا وجدناها فى أداء ما ، وألا نحكم عليها بالصناعةّ والنسبية والوهمية ، التى تجعلها فاقدة للقيمة . ولكن نكلف أنفسنا الجهد الجهيد فى أن نعرف الذوق العامّ ، والتقاليد الأدبية ، وظروف البيئة الفنية ، التى دعت إلى مثل هذه الزوائد ، وهذا يتطلب منا دراسة لتأريخ البيئات الأدبية ، و « الموضات » الأسلوبية المختلفة . فإذا فرغنا من كلّ ذلك وعرفناه جيدا ، نظرنا إلى ما يقع بأيدينا من آثار شعرية أونثرية ، فيها زوائد المحسنات ، بالنظر إلى بيئاتها وتقاليدها ، وحكمنا عليها فى ضوء المعرفة التى ألممنا بها .

والسبيل الأولى فيها تطرّفٌ وإجحافٌ بواقع الأمور . فمع أن الجمال العارى من الزينة [تذكر تشبيه الصورة البشرية الذى قدمناه] مقبول على وجه الإجمال ، إلا أن الزينة فى حدّ ذاتها شىء كالضرورىّ بالنسبة إلى الطبيعة البشرية ، لايمكن تجاهله مهما يكن اعترافنا بما يدخل الزينة من اختلاف البيئات والأمزجة .

ألا ترى أن الصورة الآدمية لاتتعرّى من زينة الملبس وما بمنزلته إلا نادرا ؟ ألا ترى أن الجمال العارى نفسه لايخلو من زينة وزركشة تخطّها يد الله ، فضلا عن ، وزيادة على ، سلامة التّقاطيع ، واستقامة القامة ، وصحّة البِنية ، وغير ذلك من الصفات التى يكون بها إفصاحُ الخالق بمعنى الصورة البشرية من غير ما زوائد ؟ خذ نونات الخدود مثلا ، وجُعُودةَ الشَّعْر ، وبلاتينيَّتَه ، والخال الذى فى الخدّ ، وشدة اللَّعَسِ فِى الشَّفَة ، وغير ذلك من هذه المظاهر الطبيعية التى تزيد جمال الجميل — ألا ترى أن كلّ ذلك ضربٌ من التزيين والتحسين زاد على مجرّد السلامة والقبول والبهجة ؟ فإذا كان المبدع الصانع الخالق نفسه لايدع ما يخلقه من زخرفةٍ وتزيين ، أليس أقرب فى حقّ البشر أن يكونوا أشدّ رغبة فى التزيين ، وأقوى تعلّقا به ؟ ثم

ألا تحسب أن البشر إنما أخذوا فكرة التزيين نفسها عما خطَّته يد القُدرة والطبيعة ؟ خذ مثلا صَبْغ الشفاه بالإثمد عندنا فى السودان . ألا يخطر ببالك أن ذلك محاكاة من الناس لما يرونه فى بعض الشفاه من لَعَسٍ طَبَعِىّ ؟ وكذلك ما كانت تفعله العرب من إسفاف اللِّثات النَّؤور والكحل ؟ وكذلك الصبغ بالحمرة عند الإفرنج ؟ — ألا ترى أنه محاكاة لما يرونه من تورّد طبعىّ فى بعض الشفاه الحسان ؟

هذا . وكما أن الرغبة فى التحسين ناشئة عن طلب الزيادة على جمال الطبيعة، بمحاكاة بعض مظاهره . فهى أيضا ناشئة عن الرغبة فى الحدّ والتقليل من قيمة الجمال الطبعى ؛ ويبدو لى أن للحسد ضَلْعاً قوياً فى هذه الظاهرة الثانية من مظاهر التحسين . ألا ترى أن الإنسان إذا استحسن صفةً ما فى شخصٍ آخر ، بدا له أن يضاهى ذلك الإنسان فى تلك الصفة ، وتمنى أن لو قد كان ذلك الإنسان ليس بأكثر منه حُسنا ، أو ليس بمالك لتلك الصفة التى تكسبه ما تفرّد به من الجمال ؟ لا ، بل لتمنى أن لو يجد سبيلا إلى أن يسلبه تلك المزية سلبا حتى يكون مساويا له ، غير متميز عنه بشىء . ألا ترى معى أن صَبْغ الشفاه بالإثمد يراد منه حِرْمانُ اللَّعْساء لَعَسَها الطَبَعِىّ ، كما يراد منه إكساب غير اللعساء لعَسا صناعيًّا ؟ وقلْ مثل ذلك فى إسفاف اللثات النَّؤورَ والكُحْل ، ووشم الخدود بالخضرة . وثقب الآذان ، وتضخيم الشفاه ، وغير ذلك من ضروب التشويه التى تسمى زينة وتجميلا . إن الناس يَتَنَفَّسون على الجميل جماله ، وعلى « الممتاز امتيازه » . ومن أجل هذا فهم يحتالون على المساواة بشتى الطرق . ولعلّ التجميل التقليدىّ ، الذى يرثه مولود عن والد ، وجيل عن جيل ، وتختلسه أمة من أمة ، ويحاكِى فيه شعبٌ شعبا ، من أخطر ما عثرتْ عليه البشرية من أسلحة المساواة .

هذا . ونعود الآن إلى ما كنا فيه .

والسبيل الثانية فيها تكلفٌ شديد . لأن معرفة الأذواق و « المُودات » القديمة

تتطلب أمرين :

أولا : تحليل المادة التى بأيدينا من أدب القدماء ، وعمل قوائم « بالكلشيهات » التى كانت تغلب فى هذا العصر أو ذاك — وهذا أمرٌ ممكن مع بذل الجهد الجهيد — أقول : ممكن من وجهة النظر الدراسية البحتة ، إلا أنه لابدّ من التنبيه على أن ظروف الحياة فى بلادنا لاتمكّن من هذا النوع من الدراسات ، الذى يحتاج قبل كلّ شىء إلى التوفّر والتجرّد والمعونة المالية من الدولة أو الهيئات العلمية .

وثانيا : معرفة آراء القدماء وأحكامهم على تلك « الكلشيهات » التى سنحصل عليها بعد تحليل المادّة ، وعلى ما بمجراها من أساليب التعبير . وهذا أمرٌ فى غاية الصعوبة ، وهو إلى الاستحالة أقرب ، لأنه ليس بأيدينا نبراس يكشف لنا عن آراء القدماء وأحكامهم ، اللهمّ إلا نُتفا ولُمَعا ضئيلة . ولا يمكن إصْدار الأحكام العامّة من جهتنا فى ضوء اللمع الضئيلة ، والنُّتف المبعثرة ، وعلى هذا فسيكون عمدتنا التخمين والحدْس . ومهما صدقنا فى ذلك ، فإننا لانحصل على نتائج وافية شافية .

وإذن فيلزمنا أن نمزج بين السبيلين ، الأولى والثانية ، وذلك بأن نجعل طلب الإيجاز المحض ، والإعراض عن الزوائد ، نُصْب أعيننا ، وفى نفس الوقت نحاول معرفة بعض وجوه الزينة اللفظيّة ، التى مافتئت تروق الأدباء ، وذلك باستقرائها من المختارات الجياد ، المجمع على تقديمها وتفضيلها . هذا ولابدّ قبل الاستقراء من الإلمام ببعض المبادئ الجمالية العامّة ، التى تسيطر على فكرة التزيين والتحسين فى عقول البشر .